الجاهلية وأسبابها

بحث

في الدراسات الإسلامية

أ.م. د. عبد الملك محمود محمد

كلية الإمام الأعظم (رحمه الله) الجامعة

الأنبار

المقدمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على عبده ورسوله المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين؛ وبعد:

درج الانسان على سطح الأرض و هو مكتمل الدين والاعتقاد، مزود بمنهاج إله جمع فيه العقيدة والعبادة والأخلاق والعمل مع العلم اللدني الذي عبرت عنه الآية الكريمة (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا)[1] وفي قوله تعالى (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)[2]

حديث عن شريعة فيها:

عقيدة: (إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ) والتقوى شرط في قبول الأعمال، (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ)، وكان الخوف من الله جل وعلا قد وضع موضع التطبيق العملي:

وفيها عبادة: عبر عنها القربان، وهو اسم لما يتقرب به إلى الله تعالى من نسك أو صدقة[3]

وفيها أخلاق: (لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ)، في منتهى الوداعة والتقوى، وعنواناً للسلام والمسألة في أشد المواقف موتاً للضمير الانساني.[4]

وعمل: وكان أحدهما، وهو هابيل راعياً، وقد قدم كبشاً، وكان أخوه قابيل

---

(١) سورة البقرة، من الآية (٣١).

(٢) سورة البقرة، من الآية (٢٧).

(٣) الكشاف، الزمخشري، ٦/ ٢١٠-٢١١.

(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب،٣/ ٨٧٦.

صاحب زرع فكان قربانه حزمة زرع.[1]

وقد كانت لفظة الجاهلية تعبيراً عن الحالة التي انحرف فيها الانسان فكرياً وعقائدياً عن منهج الله تعالى مع ما تحمله لغوياً واصطلاحاً من معاني تؤكد عدم استقامة اتباعها على منهج الله تعالى، فمالوا إلى الهوى والنفس والشيطان، فاستمروا على ما أملي عليهم من قيم ناقصة، كان من سنن الله تعالى فيها أن تكون عند التماد فيها، وعدم التوبة منها، معاول هدم، قد تقويه بالإمهال ولكنها لن تعمل مجال من الأحوال.

أوحت لي الأحوال التي يمر بها العراق أن الكثير من معاني الجاهلية وأخلاقها وأسبابها قد أزكمت الأنوف، وتمادى المفسدون والمنحرفون عن منهج الله تعالى في تسويقها، وترويجها حتى أصبحت قاب قوسين أو أدنى من ناقوس الخطر، الذي إن دق لم تنفع معه توبة، ولن تجد من دونه ملتحدا.

فكتبت هذه الدراسة التي تتكون من ثلاثة مباحث، أوضحت فيها معنى الجاهلية بصورة عامة وآراء وأقوال بعض العلماء، ومسترشداً بالقرآن الكريم من ضرب الأمثلة، ومستعيناً بأقوال العلماء في بيان معانيها، وقد خصصت المبحث الأول منها للحديث عن معنى الجاهلية في اللغة والاصطلاح، ومبرزاً أهم سمات الجاهلية، ومنها الجهل والكفر والتكبر والاستكبار، وخصصت المبحث الثاني للحديث عن الظلم، ومن الصد عن الحق، واتباع الطغاة، والنكوث، ونقض العهود، والاجرام، أما المبحث الثالث، فتناولت فيه الحديث عن الفسوق، والترف وفساد اللقمة، وهذه يستوي في المؤاخذة بها المسلم وغيره.

وفي الخاتمة ذكرت أهم نتائج الدراسة، والحقت بها قائمة بأهم المصادر والمراجع التي استعنت بها واخذت منها.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٦/ ١٣٤.

المبحث الأول
الجاهلية

في اللغة: مصدر من: جهل يجهل، جهلاً، وتجاهل: أرى من نفسه الجهل، وليس به جهل، واستجهله عده جاهلاً.[١]

وفي الاصطلاح: لفظة تطلق عموماً على العهد الذي سبق الإسلام[٢] لما كان عليه الناس من الجهل بالأمور الدينية، ولما ساد فيها من الطيش والحمية السفه والأنفه والغرور، والعصبية للقبيلة أو الدم[٣] وذكر أحد الباحثين أن كلمة الجاهلية ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم، إنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب والترف، وما تقدم من أخلاق الجاهلية[٤] وما فيها من شرك وكفر وثأر وفساد، وتمرد على القيم النبيلة، واتباع النفس والهوى والشيطان، شيطان الجهل وشياطين الإنس.

إذن فمصطلح الجاهلية، يطلق على العصر الذي كان قبل الاسلام، حيث انحرف فيه الناس عن منهج الله تعالى فكرياً وعقائدياً، وشاعت فيه كثير من القيم الناقصة، أو السلبية التي شجعت ذلك الانحراف وأدت إلى قبوله مجتمعياً، والاكثار منه، والتكالب عليه، أو احترامه بعد ذلك كموروث من الآباء والأجداد من باب الاحترام والتقدير.

وجاء الاسلام بعد فترة من الجهل بمبادئ وقيم مصدرها الوحي، تهدف إلى إعادة الناس إلى المنهج الفطري الرباني الأول الذي فطر الناس عليه، وقد أطلق على هذه

(١) مختار الصحاح، الرازي، ص١١٥، لسان العرب، لابن منصور، ٦/ ٢٣٨.
(٢) لسان العرب، لابن منظور، ٦/ ٢٣٨.
(٣) التفسير الكبير، الرازي، ٢٥/ ٢٣٦.
(٤) دائرة المعارف الاسلامية، مادة: جهل، ونظر: البناء الحضاري في القرآن الكريم، الكبيسي: ص٢٣، معالم المنهج الاسلامي، محمد عمارة: ص١٩.

المبادئ والقيم وما فيها من قواعد وقوانين وأخلاق وسلوك ومنهج دين، سماه الاسلام، بمعنى الانقياد والاذعان والطاعة والالتزام بكل ما يأمر به الله تعالى، ثم عرف بعد ذلك (بالدين الاسلامي).

لقد قامت الحضارة الاسلامية على: أسس هذه القيم، فوضعت هذه المبادئ وتلك القيم موضع التطبيق العملي، ثم ترجمتها إلى فعل وممارسة وتفاعل في حيز لا يقبل الحدود، وإن كان محدوداً.[1]

لقد قامت الأمة الاسلامية حضارتها على هدى من دينها، في منطلقات وجودها وإشعاعها حتى أصبح الإسلام شكلاً خارجياً لذلك المحتوى الكلي، لما فيه من مقومات أخلاقية، ومادية، وقيم نبيلة وأهداف سامية، فإذا غايرت الامة أو غيرت هذا المنهج، ضلت طريقها إلى تقدمها وارتفاعها وتخلت عن هيمنتها، فسقطت في وهدة المعايير والضوابط والتصورات غير الملتزمة بصيغة الاسام، ثم عادت إلى الجاهلية، لتكون بعد ذلك في مقابلة الاسلام، والدين، الدين الاسلامي.[2]

و وردت لفظة: الجاهلية، ومشتقاتها كثيراً في آيات القرآن الكريم وسوره، قال تعالى: (قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[3] وقال تعالى: (خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)[4] وقوله تعالى: (وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً)[5] وفي الحديث النوي الشريف: أن

(١) البناء الحضاري في القرآن، الكبيسي: ص٢٣.

(٢) معالم النهج الاسلامي، محمد عمارة، ص١٩، الحضارة الاسلامية، المردودي: ص٢٨٨، تاريخ الادب العربي، العصر الجاهلي، شوقي خليف: ص٣٩.

(٣) سورة البقرة، من الآية: ٦٧.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٩٩.

(٥) سورة الفرقان، الآية: ٦٣.

النبي r قال لأبي ذر وقد عير رجلاً بأمه: (إنك امرؤ فيك جاهلية)[1]، وفي الموروث الثقافي الجاهلي، قال عمرو بن كلثوم الثعلبي الجاهلي الشاعر:

ألا لا يجهلن علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا [2]

وقد عبر عن الاعتداء أو العدوان بالجهل، لما فيه من عدم معرفة قدرة الخصم وقيمته فضلاً على استعداده وعدته. ومن أبرز مظاهر الجاهلين:

أولاً: الجهل

الجهل لما تقدم نقيض العلم والدين، ومن معالمه: الطيش والسفه.. وكل رديء من القول أو الفعل ولقد عد القرآن الكريم العبث وسخف القول واللغو من سمات الجهل، وبعض معالم الجاهلية، وعد الدعوة إلى غير منهج الله تعالى، من سمات المجتمع الجاهلي، ونزه القرآن الكريم المؤمنين عن مخاطبة الجاهلين أو الرد عليهم وأوصاهم بالترفع عنهم، وحثهم على عدم مخالطتهم،[3] قال تعالى: (وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ)[4] وعد القرآن دعوة المشركين لعبادة غير الله جل وعلا، جاهلين، قال تعالى: (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ)[5] وفي الحديث النبوي الشريف (إن من العلم جهلا)[6]، وذكر أحد الباحثين إن تعلم ما لا يحتاج إليه، التنجيم وعلوم الأوائل، من الجهل بالعلم النافع.[7]

---

(١)

(٢)

(٣) التفسير الكبير، الرازي: ٢٥/ ٢٣٦.

(٤) سورة القصص، الآية: ٥٥.

(٥) سورة الزمر، الآية: ٦٤.

(٦) سنن ابي داود بن السجستاني ٥٠١٢، دار الكتاب العربي، بيروت.

(٧) لسان العرب، ابن منظور، ٦/ ٢٣٩.

ومن مظاهر الجهل التي عدها القرآن سبباً في هلاك أصحابها وبوارهم:

١. الإستهزاء والسخرية:

لقد ذكر القرآن أسئلة ما كان عليها الناس في العصر الجاهلي، منها: ما واجه به قوم موسى عليه السلام نبيهم من التمادي في تجاهلم ولغوهم الذي قابلوا به موسى عليه السلام وهو يطلب منهم تنفيذ أمر الله تعالى في ذبح البقرة، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ)[١]، وفي سورة هود قص علينا جل وعلا ما فعله الملأ من قوم نوح عليه السلام، من السخرية والإستهزاء، الذي قاموا فيه وهم يرون نوحاً عليه السلام يصنع السفينة قال تعالى: (وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ)[٢]، ثم نجد بالمقابل أن الإسلام حرم السخرية، واللمز والهمز، فقال: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ..)[٣].

٢. جهل معنى الالوهية:

لقد طالب قوم موسى هارون عليه السلام، ثم موسى عليه السلام بأن يتخذا لهم آلهة مرئية يعبدونها، متأسين بأولئك الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم، وكان ذلك بعيد نجاتهم من عبودية فرعون واستخفافه بهم، قالوا: (يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)[٤] وقد كان رد القرآن الكريم عليهم سريعاً، قال تعالى: (إِنَّ هَؤُلاءِ مُتَبَّرٌ مَا

(١) سورة البقرة، الآية: ٦٧.
(٢) سورة هود، الآية: ٣٨.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١١.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.

هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)[1] وسواء أكانت هذه الآلهة أصناماً أو تماثيل أو قبوراً أو مزارات، فالأمر سواء .

٣. وجهل قوم لوط عواقب أفعالهم المنكرة، التي كانوا يمارسونها في نواديهم، دون حياء، وكان وصفهم بالجهل في قوله تعالى: (أَإِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ)[2]، وكان هذا الجهل مدعاة لما حل بهم من العذاب في الدنيا والآخرة.

٤. ومن الجهل التمسك بالعادات والتقاليد الفاسدة، التي كانت سائدة في المجتمع، مما يخدم مطامعهم ويحقق بعض شهواتهم وأغراضهم الآنية، مما يقع تحت مسمى، العرف أو العادة، أو قانون العشائر أو قانون القبيلة، التي وضعت بعض أعرافها لخدمة الأقرباء والأغنياء والأذكياء، وإن كانوا طغاة أو فاسدين وقد رد القرآن الكريم ما كانوا عليه من ظلم وجور، وسفه، وفجور،[3] قال تعالى: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)[4].

لقد حذّر القرآن الكريم من الجهل، وأمر بالتعلم وحث عليه، حتى أصبح العلم هو الأساس الذي قام عليه الدين، ثم كان العلم منطلقاً للحضارة الإسلامية منذ اللحظات الأولى لنزول الوحي، وفي التنزيل ما يفيد أن الإنسان الذي ولد مؤمناً بالفطرة، قد حظي برعايته جل علا وعنايته، فعلمه عن الأسماء والأشياء ما لا بد منه في الفهم والإدراك

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٣٩.
(٢) سورة النحل، الآية: ٥٥.
(٣) ينظر التفسير الكبير، الرازي، ٢/ ١٩١، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١/ ٢٨٢.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٥٠.

والتذكر والتدبر، ما جل منه وما كان حقيراً، ليظهر كمال فضل الله تعالى وقصور الناس،[1] قال تعالى: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا..)[2]

لقد كان اختصاص آدم عليه السلام بالعلم متصلاً بالأرض، وما على ظهرها من حياة، واستكشاف قواها وأسراها، ولا بد أن تتسع هذه المعرفة الآدمية، لتشمل علوم الكون والحياة من خلال البحث والتجربة وقد أوتي الإنسان عقلاً يستطيع بواسطته تسخير عناصر الكون والاستدلال بها على آيات الله جل وعلا في ملكوته ليطمئن على عظمة بارئه وقدرته واحاطته بكل ما في هذا الكون، وغيره، فيقدره حق قدره، ثم يسبح بحمده، ويهتف بمجده، وحده لا شريك له.

لقد وردت كلمة العلم مرادفة لكلمة الدين نفسها، فأصبح العلم والدين سواء، وذلك يقود إلى أن الجهل والكفر قرينان، الأمر الذي أكد موقف القرآن الكريم من العقل، ودعوته لاحترامه،[3] قال تعالى: (وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ)[4]، و وردت كلمة الجهل مرادفة للظلم، قال تعالى: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ)[5] فجاءت لفظة (الظالم لنفسه) معنى الجاهل، أما من تعلم، فكان مقتصداً، وأعطى معنى السابق بالخيرات لمن تعلم وعلم.[6]

لقد وضع جل وعلا العلم من المكان الرفيع، والعلم هنا يعني عمران الحياة وإقامة

(١) حوار في المعمار، عماد الدين خليل: ص١٢٥.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٣١.
(٣) حوار في المعمار الكوني، عماد الدين خليل، ص١٢٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٢٠.
(٥) سورة فاطر، الآية: ٣٢.
(٦) التفسير الكبير، الرازي، ٢٦/ ٢٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٤/ ٣٤٨.

العدل، والعلم المقصود هو العلم الذي يعرف الإنسان من خلاله الحق من الباطل، والخطأ من الصواب، وهو السبيل الوحيد للفوز والنجاة وهي الطريق الآمنة إلى الجنة إن شاء الله...

قال بعض الحكماء: من أعطي العلم والقرآن ينبغي أن يعرف نفسه، فلا يتواضع لأهل الدنيا لأجل دنياهم فإنما أعطي افضل ما أعطي أصحاب الدنيا، لأن الله تعالى سمى الدنيا: (متاعاً قليلا) وقال: (قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ)[1]، وعد العلم والقرآن (خيرا كثيرا)[2]

ثانياً: الكفر، أو الإنحراف الفكري والعقائدي:

الكفر في اللغة: التغطية والجحود، ومنه جحود النعمة وسترها.[3]

واصطلاحاً: انكار وجود الله تعالى، أو عدم التسليم بوحدانيته، أو إنكار شيء مما جاء من عند الله تعالى[4] أو التلقي من الزعامات الطاغية، والتوجه إليها واتباعها والإندماج بها.[5] ومن طاعة الكبراء الطغاة طاعة عمياء، قال تعالى: (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا)[6].

وقال جل وعلا في سورة البقرة يصف الكفار: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ

(١) سورة النساء، الآية: ٧٧.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٩.
(٣) مختار الصحاح، الرازي، ص٥٧.
(٤) كيف يكتب التاريخ، محمد قطب، ص٤١.
(٥) التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، ص٣٠٤، تفسير التاريخ علم اسلامي، عبد الحليم عويس، ص١٦٩.
(٦) سورة الأعراف، الآية:٦٧.

عَذَابٌ عَظِيمٌ)[1].

لقد اصيب الكفار بالعمى الفكري، الذي أدى إلى إصابة العلاقة بين الإنسان وخالقه بخلل، جعل قلوبهم غير واعية لما وصل إليها، وجعل الاسماع غير مؤدية لما يطرقها من الآيات البينات إلى العقل بوجه مفهوم، أما الأبصار، فقد فقدت القدرة على الإهتداء للنظر السديد في مخلوقات الله وعجائب صنعه جل في علاه فجعلت تميز له الأشياء المختوم عليها ختماً حسياً.[2]

إن الانسان الذي يفقد الرؤية يتحول نفسه إلى عامل هدم لنفسه ولمجتمعه وحضارته، لأن الحضارة أو بناءها، هي نفسها قد تكون معادل هدم لها وسبباً في سقوطها، فإذا توارت الفكرة الصائبة، والنظرة السديدة، حلت محلها الفكرة النفعية، التي كثيراً ما تحولت إلى سرطان سرعان ما يقتل المجتمع، أو يعود به إلى الجاهلية. [3]

ودخل ضمن الكفر: الشرك، وهو عبادة من هم دون الله من المخلوقات، الأشياء والأشخاص أو الإستعانة بهم أمواتاً أو أحياءً، وتكذيب الرسل، حسداً من المشركين والكفار، أو تكبراً عليهم، وأنفة من الإنقياد أو الإتباع لهم، لما يظنونه من الأفضلية لغيرهم، أو الإعتذار بذلك.

والتكبر والاستكبار من الجهل:

التكبر في اللغة: التعظيم، وإظهار كبر النفس على غيرها.[4]

---

(١) سورة البقرة، الآية:٦-٧.

(٢) فتح القدير، الشوكاني،١/ ٣٩، وينظر: البناء الحضاري في القرآن الكريم، الكبيسي، ص١٧٦، على طريق العودة إلى الإسلام، البوطي، ص٢٠٧.

(٣) تفسير التاريخ علم إسلامي، عبد الحليم عويس، ص١٦٩.

(٤) مختار الصحاح، الرازي، ص ٥٦١، التفسير الكبير، الرازي، ٢٥/ ٤.

وفي الإصطلاح: أن يرى المتكبر نفسه فوق غيره، في صفات يحسها من دواعي الكمال، فتكون في نفسه هزة، وفي كيانه نفخة تجعله بين الصورة والحقيقة.[1]

إن أنفاس المتكبر تنطق بالمذلة، وترى في شخصيته نوعاً مهيناً من الإضطراب، والقلق، أما أفعاله وأنماط سلوكه، التي تفترش بعض مظاهر التكبر، وتعلن تفاهات من الاستكبار، جعلت في تصوره خللاً واحاطت فهمه بالخطأ، وذلك الذي زين للمتكبرين ما فيهم من أخلاق الجاهلية المقيتة، فظنوا أنهم في غنى عن الله جل وعلا، وأن رؤيتهم هي الرؤية الصحيحة وأن الحق كل الحق في تصرفهم، مع ما لا يرونه من مذمة الناس، الذين يخشون سطوتهم ويخافون بطشهم، فكان هذا سبباً في انحرافهم عن منهج الله تعالى، وعودة بهم إلى نهج الجاهلية، الذي أشاع الفساد، وشجع المفسدين، فاستحقوا من الله جل وعلا المقت والعذاب، أو الاستئصال، قال تعالى: (وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَلا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيّاً وَلا نَصِيراً)[2].

لقد كان من سنن الله جل وعلا نبذ المتكبرين، أو المستكبرين بغير حق، ودحرهم، قال تعالى: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ)[3] ونهى جل وعلا عن الخيلاء والمشي في الأرض مرحاً، بل وأمر بالتواضع، قال تعالى: (وَلا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً)[4] وفي قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ)[5] ما يفيد تحريم المفاخرة، ومشية الخيلاء، وجر الثياب ونحوها لما فيها

(١) الإنسان والأديان، محمد كمال جعفر، ص ٢٤.
(٢) سورة النساء، من الآية: ١٧٣.
(٣) سورة الأعراف، من الآية: ١٤٦.
(٤) سورة الإسراء، من الآية: ٣٧.
(٥) سورة لقمان، من الآية: ١٨.

من أخلاق الجاهلية، التي تتود إلى اشاعة المنكر، والاكثار من الفساد، الذي جعله جل وعلا سبباً في العقوبة، التي قص لنا أطرافاً منها في القرآن الكريم، وتوعد المتكبرين والمفسدين بالويل والثبور والعذاب الأليم في الآخرة.[1]

وقص لنا القرآن أخبار أولئك الذين استكبروا وتكبروا، في المدة التي كانت والاسلام، ومنها:

١. لقد أنكر الملأ من قوم نوح بشرية الرسل، وعدوا إمامة الفقراء والضعفاء شيئاً مهيناً وذكر القرآن قولهم في قوله تعالى: (أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ)[2]. هكذا كان تصورهم للحالة الطبقية المقيتة في المجتمع الجاهلي، ثم تمادوا في غيهم وازدادوا استهتاراً وسخفاً عندما طلبوا من نوح عليه السلام الابتعاد عن هؤلاء المؤمنين -الضعفاء الفقراء- في تقديرهم، كشرط لإيمانهم فإنه رفض الإستجابة لطلبهم، فإنهم مصرون على التمسك بما وجدوا عليه آبائهم من الوثنية والشرك والآلهة الكاذبة، التي استحقوا بعد ذلك من اجلها ما حل بهم من الاستئصال بالطوفان ليكونوا عبرة لمن جاء بعدهم.

٢. واستكبر قوم هود بغير الحق،[3] قال تعالى: (وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ)[4]، وتعالوا على الناس، واسرفوا في التجبر والطغيان والبطش بمن خالفهم، فكان هذا من أسباب الفساد والخراب الذي أصاب العلاقات بين الناس في شتى مادين الحياة، ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً.. بل وأخلاقياً، فتحول المجتمع عن الخط السليم النظيف المعمر الباني الى خط لا تستقيم معه خلافة

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٤/ ٥٣٥-٥٣٦.
(٢) سورة الشعراء من الآية: ١١١.
(٣) التفسير الكبير، الرازي، ٢١/ ١٥٧.
(٤) سورة هو، من الآية: ٦٠.

الانسان في الارض بحال. لقد أصبح هؤلاء الطغاة المستكبرون أسرى الهوى، لا يفيئون إلى ميزان ثابت ولا يقفون عند حد ظاهر. وانتهى هذا الفساد إلى الإبتعاد عن الهدى، ثم استمراء الانحراف عن منهج الله تعالى، والعودة إلى طريق الجاهلية.[1]

٣. واستكبر قوم صالح عليه السلام، وتجبروا عليه، غرهم في ذلك ما كانوا عليه من الغنى والقوة البدنية فظنوا أنهم انما صاروا إلى هذه الحال، بجهودهم، وقوتهم، وهم أفضل من اولئك المستضعفين الذين آمنوا بدعوة النبي صالح عليه السلام، واطمأنوا إليه، فكان استكبار هؤلاء الملأ سبباً لم حاق بهم ن العذاب والاستئصال في الدنيا، أما عذاب الآخرة فأمره إلى الله جل وعلا، قال تعالى: (كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقها فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقيها فكذبوه فعقروها فدمدم عليه ربهم بذنبه فسواها ولا يخاف عقبها).[2]

٤- ويبدو استكبار قوم لوط عليه السلام جلياً، مقترنا بكل انواع الصلف والحمق والوقاحة، فضلاً على أنكار نبوتهِ عليه السلام وتمردهم عليه ورفضهم ما قدمه لهم من النصح، وتمادوا معاداته، دعائهم الى ذلك ما كان فيهم من مظاهر القوة والغلبة، وما استمرؤُه من الفساد، حتى صار عندهم فطنة التفاخر والظفر عنواناً للرجولة والغِلاب، والكثرة، ولقد نجى الله لوطاً ومن معه، ثم كان عقابه للمسرفين في الفساد، والمتغنين بالإفساد، ولمن اظهر الفسق والفجور والاستكبار أليماً، وأخذه شديداً.[3]

٥- ومن مظاهر التكبر والاستكبار التي نصها لنا القرآن الكريم ما كان عليه الملأ من قوم شعيب عليه السلام، لقد خيروا النبي شعيب عليه السلام ومن آمن معه بين أمرين

(١) التفسير الكبير، الرازي، ٢٤/ ١٦٥، في ظلال القرآن: ٣/ ٥٩٢.
(٢) سورة الشمس، الآية: ١١-١٥.
(٣) تفسير شعراوي: ٧/ ٤٧٤٣.

لا ثالث لهما: أما الخروج من القرية، أو العودة الى الكفر، والانتماء الى الملةِ الكافرة، التي والت الشيطان، وأسلمت قيادتها لإعداء الله جل في علاه ثم هددوا شعيباً، وتعسفوا في الرد عليه، وكانوا أنما استعانوا بقوتهم، وما هم عليه من الجاه والغنى والاستكبار، التي ضنوا فيها النجاة والتمكين، قال تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ)[1]

لقد كان النبي شعيب يتمتع باحترام وتقدير الناس في تلك المدة لما كان عليه من الصلاح والاستقامة، ولما كانت عليه عشيرته أو أسترته من المكانة الاجتماعية المرموقة، ولذلك جاء تهديدهم له محاطاً بالاعتذار لرهطهِ، ولعل في هذا الملاحظة موعظة لقريش وغيرها ممن هم على شاكلة ((الملأ)) التي كانت تتعامل بالأسلوب نفسه مع النبي محمدﷺ، في احترام وتقدير علاقتهِ بأبي طالب التي كانت ودية اولاً، ثم تحولت بعد الى دفاع عن الرسول ﷺ، مع بقاءه على الشرك ظاهراً.

لقد استحق المتكبرون والمستكبرون، والطغاة ما حاق بهم من الهلاك والتدمير، لتطمئن نفوس المؤمنين بعد ذلك، لعين الله تعالى ورعايتهِ وأمانه، وهم الاكثرون أن شاء الله تعالى، أما أولئك الذين ركعوا لغير الله تعالى، فستدوسهم اقدام الزمن، في اي جاهليةٍ وجدوا، في تلك التي لا اسلام فيها، او في تلك التي ليس لها من الاسلام الا الاسم، وهؤلاء امثالهم سيعاملهم التاريخ معاملة الجوارب، أرأيت جورباً دخل التاريخ ولو في حذاء امبراطور!![2][3]

٤. وذكر في القرآن الكريم تعالي فرعون واستكباره وعناده، وهو موقن بصحة

(١) سورة الاعراف: الاية ٨٨.

(٢) الكشاف، الزمخشري: ٣/ ١٧٠ ،الدر المنثور،السيوطي، ٦/ ٤٣.

(٣) وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي: ١/ ١٨٦

نبوة موسى عليه السلام خوفاً على زعامته وملكه، وطغيانه وتسلطه على رقاب الناس الذين استخَفهم، فأطاعوه، قال تعالى (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا)[1]، ونتيجةً لهذا التعالي والظلم والاستكبار، منعوا الناس من الايمان بما جاء به موسى عليه السلام، فما آمن الا قلة من الفقراء، والضعفاء، مع الخوف الشديد من فرعون وملائه،[2] قال تعالى (فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ)[3].

المبحث الثاني
الظلم

والظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه[4]، ومن وضع الشخص غير المناسب في المكان الذي لم يكن جديراً به، وكوضع الانكار موضع الاقرار، والكفر موضع الايمان، والجهل موضع العلم، ومن الظلم ما عبر عن الشاعر بقوله:

«وضع الندى في موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف في موضع الندى»

وفي العصر الجاهلي، اي عصر سواء كان قبل الاسلام او بعده، ظَلَمَ كثيراً من الناس أنفُسهم بكفرهم أو شركهم، أو عبادة الاشياء أو الاشخاص مع خستها، وظلموا الناس من حولهم بصدهم عن الايمان وصرفهم عنه بالقوة، والبطش، استكباراً واستهتاراً[5]، وأشد الناس ظلماً من افترى على الله الكذب فظلم نفسهُ بعد قيام الحجة عليه[6]،

(١) سورة النمل/ الآية ١٤.
(٢) التفسير الكبير، الرازي ٢٣/ ١٠١
(٣) سورة يونس/ الآية ٨٣
(٤) مختار الصحاح، الرازي ص ٤٠٥
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٨/ ٢٠٢
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٨/ ٢٠٢

وظلم امته ورضي لها حياة زائلة، مقابل الحياة الابدية، ولم يدرِ أنهُ يظلم الناس فإنهُ يحمل اوزارهم، وعليه تبعة ما يفعلونه، فيرجع اجرامه وظلمه على نفسه، وهذا منتهى الجهل والتخبط والعمى.

إن من يسمح بالظلم في اي صورةٌ من صوره، ولا يقف في وجه الظالمين، ولا يأخذ الطريق على المفسدين يستحق ان يناله ما نال الظالمين، وأن يؤخذ بجريرتهم، أما أولئك الذين يرجون النجاة من الفتنة لما فيها من الصلاح والطيبة والتقى، وهم قاعدون اذلاء مستكينون، فقد نعى جل وعلا عليهم ما فيهم من الاستخدام والتخاذل والإخلاء إلى الارض، وتوعدهم بذات المصير قال تعالى: [وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ][1]

وردت كلمة الظلم بصيغ متعددة في اكثر من ثلاثمائة موضع في تسع وخمسين سورة من سور القرآن الكريم، وقد اباح للمظلوم الانتصار ممن ظلمه، وعَد الافتراء على الله جل وعلا والتكذيب بآياته وكتبه ورسله من اشد الظلم، وان عذابه سيعم أولئك الذين يدعُون الظالمين ولا يأخذون على ايديهم، وسينال أولئك الذين يزعمون انهم طيبون، صالحون، ولكنهم لم يفعلوا شيئاً لمنع الظلم وصد الظالمين، روى مسلم الحديث القدسي، ((يا عبادي إني حَرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي، وجعلتُه بينكم محرَّما، فلا تَظَالموا))[2]، وعن رسول الله ﷺ قوله ((إِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[3]، ومن الظلم: الصد عن الحق وإتباع الطغاة:

(١) سورة الانفال/ الآية ٢٥
(٢) صحيح مسلم: ٨/ ١٨.
(٣) صحيح البخاري: ٢/ ٨٦٤.

الصد: الإعراض والمنع والصرف عن الإمر.[١]

وعد القرآن الكريم لصد عن سبيل الله وصرف الناس عن الاسلام ظلماً، فإن اقترن الصد بالإعراض والسعي في صد الناس صار كفراً [٢]، قال تعالى: (فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا)[٣].

أما أولئك الذين يرومون التحاكم في الخصومات الى غير كتاب الله تعالى وسنن رسوله ﷺ من المنافقين والكافرين والعودة بالأمة الى اعراف العشيرة وقيم القبيلة، وتقاليد الجاهلية فحسبهم ما تقدم من الاستفهام الذي ينكر فيه جل وعلا عليهم ما يتطلعون اليه من حكم الجاهلية، الذي يخدم بعض أغراضهم وأهدافهم الآتية المستعجلة، في الشهوات، والمفاسد، التي لا يمكن تحقيقها في اي منهج يخضع للعقل والمنطق السديد، قال تعالى: [افحكم الجاهلية يبغون؟][٤].

والنكوث من الظلم

ونكث، من باب نَصر، معنى: نقض، ومنه: نكث العهد اي نقضه، واصله من النكث وهو نقض اخلاق الاجنبية البالية والاكسية القديمة لتغُزل ثانيةً [٥].

والنَكَثُ: نقض ما تعقدهُ من بيعة وغيرها[٦].

وردت هذه الكلمة بصيغة: نكَثَ ينكُث، ونكَثوا، وينكثون، وأنكاثاً ست مرات في

(١) تاج العروس، الزبيدي: ٨/ ٢٦٦.
(٢) التفسير الكبير الرازي: ٢٠/ ١٨، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١/ ٥١٣.
(٣) سورة النساء/ من الآية ٥٥.
(٤) سورة المائدة/ من الآية ٥٠.
(٥) مختار الصحاح، الرازي: ص ٩٨٧
(٦) تاج العروس، الزبيدي: ٥/ ٣٧٦

خمس سورٍ من القرآن الكريم[1]، وتفيد الآيات التي ذُكِرت فيها هذه الالفاظ القول: ان الذين نقضوا عهدهم مع المؤمنين وأعلنوا عداوتهم لهم وطغوا في دين الله وما ارتضاه للامة من منهج، إنما فعلوا ذلك استكباراً، وتكبراً، فظلموا انفسهم وظلموا غيرهم، بما يريدونه من الفساد في الارض وتحكيم الهوى والعودة الى الجاهلية، وعليه فإن مثل هؤلاء يستحقون كل ما جرى لهم من الاخراج والمحاربة والقتل، واولى الناس بذلك أئمة الكفر وسادة المنحرفين وكبراؤهم الذين نكَثوا عهودهم، وأصروا على منع الناس من الايمان واسرفوا في صد الناس عنه.

لقد تصدى المشركون لدعوة النبي ﷺ ومنعوه من اقامة منهج الله تعالى، وتمادوا في ذلك، حتى اخرجوه من مكة المكرمة، وفعل مثلهم اليهود، في المدينة المنورة، إذ أنكثوا عهودهم التي عقدوها مع النبي ﷺ، فيما نذكره من دستور المدينة، وتمادوا في ذلك، فتحالفوا مع المشركين في مكة المكرمة من قريش واحلافهم، غطفان وغيرهم من الاحزاب، وعملوا بقوة ضد الاسلام، والمسلمين، وكان من نتائج تلك المعاداة، وذلك التأليب ما نعرفه من غزوة الاحزاب او الخندق سنة (٥هـ)[2]، وقد اعان اليهود بعد تلقهم المشركين على الموحدين[3].

لقد نسي المعاهدون انهم عندما وضعوا ايديهم في يد رسول الله ﷺ، إنما وضعوا ايديهم في يد الله تعالى، فكان رَدَ فعلهم على انفسهم، ذلك ما جاء بقوله تعالى [فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا

(١) القرآن الكريم، تفسير وبيان، الحمصي: ص ٢٢٠
(٢) تنظر: السيرة النبوية، ام هشام:
(٣) تفسير شعراوي: ٨/ ٤٩١٨-٤٩١٩

يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ][1] وظلت [يد الله فوق ايديهم][2]، فهو صاحبها ومتوليها بعد رسول الله ﷺ، وما من صفقة بين العبد وربه الا والعبد فيها رابح، فضلاً من الله ورحمته، فإن نكث العبد تلك الصفقة، كان خسراناً مؤكداً له.[3]

ت- الإجرام: من الظلم، وهو من أبرز معالم الجاهلية:

والاجرام، من الجرم والجريمة بمعنى الذنب[4]، وقيل: المجرم من يقترف المعاصي، ويفعل المنكرات، ومنها: تكذيب الرسل، وانكار النبوات والرسالات، والشرك والكفر والظلم والطغيان والتكبر أو الاستكبار[5]، والصد عن منهج الله تعالى، ومنع الدعاة بالقوة. فكان في سلك المجرمين عودةً بالأمة الى الجاهلية، وما فيها من غلظة وجفاء وجبروت، ثم كان التحدي، الذي أوجب عليهم ما يستحقونه من العقوبات التدميرية، جزاءً وفاقا، فلم تبقى من اخبار اولئك المجرمين الا بعض مساكنهم، ونتفاً من مظاهر مدينتهِ، أما المجرمون، فقد قطع الله جل وعلا دابرهم، فلم يعُد بمقدورهم تحدي منهج الله تعالى ودعوة أنبيائه ورسله، فإن عاد من جاء بعدهم الى الانحراف عن منهج الله تعالى، وارتكاب الجرائم فلم يتركوا دون عقاب[6].

وردت كلمة مجرمون، ومجرمين حوالي خمسين مرة في القرآن الكريم، تارة بصيغة المفرد، المجرم، ومجرماً، وعلى وزن أفعل مسندة الى ضمير المتكلم ومعه غيره، وجاءت بصيغة من صيغ الافعال الخمسة ((تجرمون))، وجميع هذه الالفاظ تحمل معنى الذنب،

(١) سورة الفتح: من الآية ١٠.
(٢) سورة الفتح: من الآية ١٠.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب: ٧/ ٤٩٧.
(٤) مختار الصحاح، الرازي: ص١٠٠.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ٦/ ٢٢٧، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٩٦.
(٦) التفسير الكبير، الرازي: ١٨/ ٢٢، تفسير شعراوي: ٧/ ٤٢٣٤.

والمذنب، وعد القرآن الكريم من كذب بآيات الله، او استكبر من المجرمين، قال تعالى(إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ)[1].

وعد القرآن الكريم عدم الايمان بالأنبياء والرسل، ومنهم محمد ﷺ، سمة المجرمين، الذين يستحقون ما اعد لهم من العذاب الاليم، المقترنة بالصغار والذلة والهوان الذي يستحق الاكابر من المجرمين الذين ما انفكوا يمكرون بالأمة، ليعيدوها الى العصر الجاهلي، لكن الله جل وعلا دائما لهم بالمرصاد، قد اعد لهم يليق بإجرامهم واستكبارهم من لعذاب، قال تعالى(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ)[2].

وكفر المنافقون، بعد ايمانهم، وقد تجد فيهم من يعتذر عن سلوكه، ويبحث عن مسوغات لمنهجه فرفض القرآن الكريم اعتذارهم، وعدهم مجرمين، قال تعالى (لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ)[3]، وفي هذه العقوبة يؤكد جل وعلا إبطال الباطل، ولو كره المجرمون،(لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ)[4]، وهذه العقوبة صارت سنة جارية في المجرمين، والظلمة، الذين كذبوا الرسل، وأنكروا البينات، على مر العصور والدهور، قال تعالى (كذلك نجزي المجرمين)[5].

ومن امثلة هؤلاء المجرمين، قوم لوط وما كانوا عليه الفسق والمجون والجريمة،

(١) سورة الاعراف/ الآية ٤٠.
(٢) سورة الانعام/ الآية ١٢٤.
(٣) سورة التوبة/ الآية ٦٦.
(٤) سورة الانفال/ الآية ٨.
(٥) سورة يونس/ الآية ١٣.

فأرسل جل وعلا عليهم (حِجَارَةً مِنْ طِينٍ)[1]، وقد عدهم الرسل والملائكة الذين تولوا عقوبتهم مجرمين، قال تعالى:(قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ)[2]، ولقد اصاب آبار غال ومن معه من جنود ابرهة الحبشي، ما نعلمه من قصته أصحاب الفيل، التي بدأت بالاستفهام الإنكاري، لعل من يسمح الوحي يستذكر ما لا يخفى عليه من تلك الحادثة التي لا تزال حديث المجالس، وبأخبارها لا زال اهل مكة يفتخرون على الامم بنصر الله العزيز العليم[3].

ولا زال في الامر متسع، وفي الوقت سعة، فليس على دعاة الجاهلية وابواقها والمجرمين منهم الا العودة الى منهج الله تعالى، الذي رفض اخلاق الطغاة والمجرمين، وتوعد من تكلب طريق الحق بالذل والتبور والعقاب الاليم، في الوقت الذي ضمن لمن رجع الى الحق الحياة الهادئة الحرة الكريمة في الدنيا والاخرة.

المبحث الثالث
الفسوق

وعدهُ بعض المفسرين: الخروج عن الشيء والانسلاخ عنه[4]، وقال آخر: هو كذب والخروج عن الطاعة، الحاصل من حال المتكلم[5]، وقال آخرون: الفسوق من التنابز بالألقاب وإثارة مظاهر السخرية والانتقاص من حقوق الآخرين[6]، وقوله تعالى: (وَلَا

(١) سورة الذاريات/ الآية ٣٣.
(٢) سورة الذاريات/ الآية ٣٢.
(٣) ينظر: مسند الإمام احمد: ٣/ ٢٩٦، المستدرك على الصحيحين، الحاكم ٢/ ٣٢٠
(٤) الكشاف، الزمخشري: ٣/ ٥٦٠
(٥) التفسير الكبير، الرازي: ٢٨/ ١١٤-١١٥
(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير: ٦/ ٣٧٩

تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ)[1]

وعد القرطبي الفسوق نوعاً من التعبير عن مظاهر الفساد التي يمارسها الكفار دون حياء أمام أعين الناس وفي منتدياتهم،[2] والفسوق: كل خروج عن أوامر الله واحكام الإسلام، ومن مظاهره: خفة الاتباع وهوان الاذناب ومهانة الرعاع وتسارعهم في تنفيذ أوامر الطغاة، والمستكبرين، ولو علموا بم فيها من خروج عن طاعة الله، بل ومعاصيه، فضلاً على ممارستهم أنواعاً من المنكرات الفعلية أو القولية، ومن هؤلاء الاتباع من يعين أسياده ويشجعهم وربما هون لهم المعاصي، ومارسها معهم تشجيعاً لهم وتحدياً لعامة المجتمع، ودون مراعاة لدين أو عرف أو خلف، وقد يدعون إلى مثل هذه الموبقات ويروجونها أو يجبرون الناس عليها بشتى الوسائل، ومنها القوة، والتهديد.[3]

لقد نفى القرآن الكريم صفة الإيمان عن الفاسقين، قال تعالى: (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون)[4] لما كانوا عليه من تكذيب الرسل، وانكار الآخرة، وجحدوا اليوم الآخر، فلا صحة في تصورهم ولا نار، ثم لا ثواب ولا عقاب، وبذلك أصبح تصورهم جاهلياً، يعتمد على م ورثوه عن آبائهم من الشرك والكفر، والانحراف، فاستحقوا عقوبة في الدنيا والآخرة، وقد وصفها القرآن بقوله تعالى: (وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيه وقيل ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون)[5] وهناك إشارة إلى أنه لفظة الفاسق، قد تشمل تعض

(١) سورة الحجرات / الآية ١١
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٣٤٢.
(٣) التفسير الكبير، الرازي، ٢٧/ ٢١٩.
(٤) سورة السجدة، الآية: ٢٠.
(٥) سورة السجدة، الآية: ٢٠.

المؤمنين الذين لا زالوا دون حسن التدقيق، أو القدرة على تجاوز مرحلة الجاهلية، لقرب عده بها، وفي القرآن الكريم درس مهم عن هذه الحالة، نزلت فيه الآية (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ)[1] وأقرب المعاني للقبول، ان خير صغير السن، أو من كان في مثل حالة الصحابي الوليد بن عقبة بن أبي معيط، الذي كانت بعض معالم الاحسن في نفسه، ولم يكن لديه قسم من الوقت للإنسلاخ عنها، فجعل هذا الصغير، في سنه، وتصوره، يحتاج في خبره على تحقق أو تدقيق قبل اتخاذ أي قرار، فكيف بالخبر الذي قد يؤدي إلى اثارة فتنة لا سامح الله؟!.

ويشمل لفظ الفاسقين كل موقف فيه تذبذب من جهة العقيدة أو وحدة الولاء والبراء، مما نجد عند المنافقين خاصة، فقد أعلنوا اسلامهم، أما في حقيقة أمرهم، فإن الإيمان لم يدخل قلوبهم، ولذلك كانوا يتربصون بالمسلمين، ويعطفون على الكفر والكافرين.

وعد القرآن الكريم الفسق تقيض الإيمان، قال تعالى: (أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون)[2] ومن هنا يكن اطلاق صفة الفسق على الكافرين، والمستكبرين، لم هم عليه من العداء للإيمان، أما المترفون من أهل القرى والمدن، والسلطة، والحكام، فقد أصبح الترف من دواعي الفسوق والخروج عن طاعة الله تعالى وانتهاك حرماته، وهي عودة إلى الجاهلية، التي لا حكم فيها إلا الهوى والنفس والشيطان، وبذلك عرضوا أنفسهم، وأهليهم وشعوبهم لسنن الله تعالى التي سيذوقون فيها الذل والهوان، قال تعالى: (وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ)[3]

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.
(٢) سورة السجدة، من الآية: ١٨.
(٣) سورة الأحقاف، الآية: ٢٠.

ومن مظاهر الفسق: الاستهزاء بالرسل والأنبياء والدعاة، وتبديل الألفاظ واحضار المعاني القيمة، كما فعل اليهود إذ ابدلوا كلمة (حطة) بكلمة (حنطة) فعدهم القرآن من الظالمين الذي يستحقون ما اصابهم من الرجز (بما كانوا يفسقون)[1] وعندما طال العهد على يهود، ابتعدوا كثيراً عن منهج الله تعالى، ولجأوا إلى الحيل والمكر كما فعلوا يوم السبت، فعد ذلك من الفسق، بمعنى الخروج عن الإيمان والطاعة، ويقع تحت هذا المعنى كل أولئك الذين خالفوا الأنبياء والرسل، خرجوا عن منهج الله تعالى بابتداعهم طقوس، وعبادات لم يقدروها حق قدرها، ومنها الرهبانية، ومناهج الانهزام من المجتمع واللجوء إلى الصوامع والبيع والكهوف والجبال.. وغيرها ومن الفسق تقليد الأمم والشعوب في مظاهر عيشها وحياتها، سواء كان في ذلك خروج عن الاسلام، أم غيره كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير وغير ذلك من المحرمات من الاطعمة والأشربة، ومما لم يذكر اسم الله عليه، قال تعالى: (حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به)[2] وقال في سورة أخرى: (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق)[3]، وفي الظلم فسق،[4] وفي عمل قوم لوط فسق.[5]

لقد دعا القرآن إلى الابتعاد عن الفاسقين، والمنافقين منهم خاصة وحرم الصلاة عليهم، قال تعالى:)وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ

(١) سورة البقرة، من الآية: ٥٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٣) سورة الانعام، من الآية: ١٢١، ١٤٥.
(٤) سورة الاعراف، الآية: ١٦٥، (وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون).
(٥) سورة العنكبوت، من الآية: ٣٤، (انا منزلوه على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون).

وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ).[1]

ومن دواعي الفسوق:

١. الترف:

زيادة في النعمة، تجر إلى الطغيان،[2] وهو من اقوى واسرع عوامل الانحلال في المجتمع الذي أعمى الثراء الفاحش بصائرهم وطمس على ارواحهم، بل وسحق كل احساس أخلاقي أصيل في نفوسهم التي حجب عنهم هذا الثراء وذلك الترف كل رؤية حقيقية لدور الانسان في الدنيا وموقفه في الكون، وطبيعة العلاقات المتبادلة بين عالمي الحضور والغياب أو بين المادة والروح.[3]

إن انتشار وسائل الترف وسيادة أخلاق المترفين تعني عودة الانسان إلى العصور الجاهلية الأولى التي تحولت العلاقة فيها بين الحاكم والمحكوم إلى علاقة مادية مطلقة، وأمرت الماديات وحدها هي القيم العليا في المجتمع والغاية المرجوة، وهذا ما ينذر بالويل والثبور، من حرب وقحط وقلة الربح في الزراعة والصناعة والتجارة، ومحق للبركات من كل شيء،[4] وعد القرآن هذه المآسي، نتيجة حتمية لانحراف الانسان والعودة به إلى عصور ما قبل الاسلام، حيث لم يستطع استخدام سوى المقاييس المادية في وزن الاشياء والحوادث والدعوات،[5] أما ما سواها من القيم والأخلاق، فقد كفر

(١) سورة التوبة، الآية: ٨٤.

(٢) مختار الصحاح، الرازي، ص٧٧.

(٣) التفسير الاسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، ٢٧٢-٢٧٣.

(٤) تفسير التاريخ علم اسلامي، عبد الكريم عويس، ص١٨٤، منهج الحضارة الاسلامية في القرآن للسيوطي: ص٤٥-٥٥.

(٥) تفسير القرآن للتاريخ، راشد الراوي، ص ١٥٩-١٦٤، سنن الله في المجتمع، محمد الصادق عرصوص: ص ٣٦.

بها، أو كذب بها وأنكرها، وهذا منهج جاهلي قال تعالى: (واتبع الذين ظلموا ما اترفوا فيه وكانوا مجرمين)[١]

لقد تميزت قوى الجاهلية، منذ فجر التاريخ بالخنوع المادي الذي ملأ كيانها بالتعاسة والشقاء، معلناً عن الانحراف الخطير في تجربة هذه القوى التي ما انفكت تزداد تحيراً وتخبط، كلما ازدادت هزائمهم المتكررة وخسائرهم الفادحة، وقد يكون هذا الانحراف، احدى سفن القدر في مواصلة هؤلاء الانحدار، إلى المصير المظلم المحتوم، ليستحقوا لعنة الله في هذه الدنيا، وما أعد لهم من عذاب في الآخرة، قال تعالى: (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)[٢] وقال جل وعلا: (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم)[٣] وقال عز وجل: (واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة)[٤] قد أوضح القرآن الكريم أن الانسان بممارسته الخاطئة، وبرفضه الالتزام بأوامر الأنبياء وتخليه عن دوره في عملية الاستخلاف يقود الأمم والشعوب إلى ما فيه الدمار والخراب، وتلك سمة واضحة للمنهج الجاهلي، والعقاب الإلهي قد لا يكون شاملاً كم هو الشأن في الأمم الغابرة، إنما يكون من خلال الفعل البشري نفسه،[٥] وقد قال جل وعلا: (هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً ويذيق بعضكم بأس بعض)[٦]

---

(١) سورة هود، من الآية: ١١٧.
(٢) سورة الروم، الآية: ٤١.
(٣) سورة الشورى، الآية: ٣٠.
(٤) سورة هود، الآية: ٦٠.
(٥) التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل: ص٣٢٠، ظلام من الغرب، محمد الغزال، ص٢٣٧-٢٤٢.
(٦) سورة الانعام، من الآية: ٦٥.

قال بعض المفسرين: إن الآية عامة في المسلمين وغيرهم إذا ما انحرفوا عن الهدى إلى طريق الجاهلية وعادوا من حيث منعهم جل وعلا عن الباطل والنفاق والظلم والاستكبار.. قال الرازي[1]: (من فوقكم) أي من الأمراء المترفين والظلمة، (ومن تحت أرجلكم) أي من السفلة والاتباع والأذناب والمأجورين الذين رضوا أن يكونوا معادل هدم وأدوات تنفيذ لما يملي عليهم من التخريب والتدمير والتنكيل وغير ذلك، وفي قوله (أو يلبسكم شيعا) يجعلكم فرقاً وأحزاباً، ومنظمات، تختلق الأهواء، ويقوي عدوكم حتى يختلط بكم،[2] ويتغلغل في صفوفكم، فيجندكم من حيث لا تعلمون ليقتل بعضكم بعضاً، ولا يعلم القاتل لم قام بالقتل، ولا المقتول لماذا قتل.

وفساد القمة من أبرز الفسوق:

حيث يتسلم المسؤولية حفنة من الظلمة والفسقة والجهلة.. فيمارسون مواقع السلطة تلك كل أسلوب من شأنه أن يؤدي إلى تفك الأمة ودمارها، وهو نذير صارخ بفساد وافساد المجتمع،[3] الذي يقوم به من ارتضتهم هذه الأمة قادةً لها، بما يمارسونه من أفعال خاطئة فضلاً على القسوة والبطش والشدة على الخصوم، لإشاعة مظاهر الانحراف والتملك والفساد، والهوى..

لقد صور القرآن الكريم هؤلاء الطواغيت، وهم في قمة الجاه والثروة والسلطة أدوات بيد الله تعالى يسخرهم من حيث لا يدرون لإنزال عقابه العاجل العادل بطرفي الجريمة:

---

(١) التفسير الكبير الرازي، ٧/ ٢٤، ونظر تفسير البيضاوي، ١/ ٣٠٥.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١١/ ٤٢٠. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٩.

(٣) سنن الله في المجتمع، عرصون، ص٣٧-٣٨.

١- السلطة التي تظلم. و ٢- القاعدة التي ترضى بالظلم.[١]

وصور لنا القرآن الكريم اعتراف الهالكين يوم يحبسهم للحساب والجزاء، بأن سبب شقائهم لم يكن إلا بسبب من سكرة المتكبرين وعتوهم وطغيانهم، وانصياع المستضعفين فيهم لأوامرهم واحكامهم.[٢] قال تعالى: (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لو لا أنتم لكنا مؤمنين قال الذين استكبروا للذين استضعفوا انحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين)[٣].

(١) التفسير الاسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، ص٦٧؛ الاسلام نظام مجتمع ومنهج حياة، انور الجندي: ص١١.

(٢) منهج الحضارة الاسلامية في القرآن، السيوطي، ص٥٦.

(٣) سورة سبأ، من الآية: ٣٠.

الخاتمة

لم تكن لفظة الجاهلية من الجهل ضد العلم، حسب، بل هي تسمية أطلقت على العصر الذي سبق الاسلام، وظلت عنواناً لكل عصر كان أو سيكون بلا اسلام، وبذلك يمكن أن نعدها حالة الانحراف الديني والفكري والعقائدي والاخلاقي والانساني عن منهج الله تعالى الذي ارتضاه لعباده منذ زمن آدم عليه السلام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وفي مثل هذا العصر – الجاهلي – سادت مبادئ وقيم وأخلاق ناقصة، تخالف منهج الله تعالى الذي جمع فيه بين الدين والعقل، وعد العلم والأخلاق، دعامتين رئيسيتين في حياة الانسان على هذا الكوكب الذي سخره جل وعلا لبني آدم لإنجاح عملية البناء الحضاري اللائق بخلافة هذا الكائن الحضاري الذي إذا ما استبدل منهج الله تعالى بمنهج الشيطان، أي شيطان فقد تحول إلى منهج جديد للهدم والتخريب الذي سيناله في الدنيا، والآخرة.

ومن مظاهر الجاهلية: والجهل والكفر والشرك والنفاق، الظلم والاستكبار والمصد عن الحق، الفساد والافساد، وانحراف الحكام والقادة، وميلهم إلى الترف وغيرها.

المصادر والمراجع

١. الأربعين في أصول الدين، الغزالي، أبو حامد، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد ت (٥٠٥هـ)، مكتبة الجندي المعاصرة بلا.

٢. أزمة التعليم المعاصر وحلولها الاسلامية، زغلول، راغب النجار، المعهد العالي للفكر الاسلامي، مصر ١٩٩٠.

٣. الإسلام والحضارة، أنور الجندي، المكتبة العصرية (بيروت بلا).

٤. الإسلام نظام مجتمع ومنهج حياة، أنور الجندي، دار الكتاب العربي (بيروت ١٩٨٧).

٥. الانسان والأديان، محمد كمال جعفر، دار اللواء، (الرياض ١٩٩٥).

٦. البناء الحضاري في القرآن الكريم، سويدان، عبد السلام داود، رسالة ماجستير، جامعة بغداد (١٩٩٣).

٧. تاج العروس شرح جواهر القاموس، الزبيدي، محمد مرتضى ت (١٢٠٥هـ)، مؤسسة الرسالة (بيروت بلا).

٨. تاريخ الأدب العربي، العصر الجاهلي، شقي حنيف، دار المعارف (مصر ١٩٦٠).

٩. التفسير الاسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، مطبعة الشعب (بنتوتي ١٩٨٥).

١٠. تفسير البيضاوي، أنوار التنزيل واسرار التأويل، (البيضاوي) ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر ت(٦٨٥هـ) دار الكتب العلمي (بيروت ١٩٨٨).

١١. تفسير التاريخ علم إسلامي، عبد الحليم عويس، دار الصحوة (القاهرة ١٩٧٧).

١٢. تفسير شعراوي، محمد متولي، مطابع دار اخبار اليوم (مصر بلا).

١٣. تفسير القرآن العظيم، بان كثير، أبو الفداء اسماعيل بن كثير الدمشقي ت(٧٧٤هـ)، دار الكتب العالي (بيروت بلا).

١٤. التفسير القرآني للتاريخ، راشد صبراوي، دار نافع للطباعة (القاهرة ١٩٧٦).
١٥. التفسير الكبير، الرازي، فخر الدين ابو عبد الله، محمد بن عمر بن حسين ت (٦٠٦هـ) دار الكتب العالي (طهران بلا).
١٦. جامع البيان عن تأويل القرآن، الطبري، ابو عبد الله محمد بن جرير ت(٣١٠هـ) دار المعارف (مصر بلا).
١٧. الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ابو عبد الله، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة ١٩٨٧).
١٨. الحضارة الإسلامية، أسسها ومبادؤها، المردودي، أبو الأعلى، الدار العربية للطباعة (بيروت بلا).
١٩. حوار في المعمار الكوفي وقضايا إسلامية معاصرة، عماد الدين خليل، مطبعة منير (بغداد ١٩٨٥).
٢٠. دائرة المعارف الإسلامية.
٢١. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن ت (١١١هـ).
٢٢. سيرة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، ابن هشام، عبد الملك ت(٢١٨هـ) دار الفكر (بيروت ١٩٧٧).
٢٣. سنن الله في المجتمع، عرجون، محمد الصادق.
٢٤. صحيح البخاري، محمد بن اسماعيل ت(٢٥٦هـ) دار الجيل (بيروت بلا).
٢٥. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري ت(٢٦١هـ) دار احياء التراث العربي (بيروت بلا).